

**روح التشاؤم في فلسفة شوبنهاور أو التشاؤم عندها يكون إنسانا**

*The spirit of pessimism in Schopenhauer's philosophy, or the embodiment of pessimism in a human..*

**الأستاذ الدكتور موسى معيرش**  
**جامعة عباس لغرور - خنشلة - الجزائر**  
momaireche@unv-khenchela.dz

الملخص:

تسعى هذه الدراسة لإبراز روح التشاؤم التي طبعت الفلسفة الألمانية بعامة وفلسفة شوبنهاور بخاصة، من خلال عرض لطبيعة هذه الفلسفة، والخلفية التي قامت عليها، وعلاقة كل ذلك بمصادر فكر الرجل، وأهم الأعمال التي أنتجها، وكانت لها بالغ الأثر في الفلسفات التي جاءت بعده وخاصة نتشه، بل وأنها تسعى أيضا لإبراز تأثيرها حتى في تكوين شخصية صاحبها.

وتكمن أهمية هذا الدراسة أكثر فيما تركه الرجل من أثر في الفلسفة الحديثة والمعاصرة. ولذا فإن إبراز معالم أو بالأحرى روح القيم التي طبعت فلسفته، تعد عملا في غاية الأهمية، كما يستجيب للحاجة الملحة التي تميز الدراسات المعاصرة، الساعية لجعل الفلسفة مرتبطة باليومي، وتحاول إخراجها من الجانب النظري الخالص.

#### Summary

This study seeks to highlight the spirit of pessimism that characterized the German philosophy in general and Schopenhauer's philosophy in particular. This will be done by presenting the nature of this philosophy, the background on which it was based, the relationship of all of this to the sources of the man's thought, and the most important works that he produced. The latter that had a great impact on the philosophies that came after him, especially Nietzsche's. It also seeks to highlight the philosophy's influence even in the formation of the personality of its owner.

The importance of this study lies the most in what the man left of an impact on modern and contemporary philosophy. Therefore highlighting the features or rather the spirit of values that distinguished his philosophy is a very important work. One that responds to the urgent need that concerns contemporary studies; seeking to make philosophy linked to the daily, and trying to bring it out its purely theoretical form.

ما قبل البداية:

الباحث في التاريخ الأوربي في القرن التاسع عشر، يلاحظ بروز ظاهرة تستحق الوقوف عندها بهدف الدراسة والتأمل، ونقصد بذلك ظاهرة التشاؤم، التي تراكمت مع تصاعد النزعة الاستعمارية عند الدول الغربية بعامة، نتيجة لتردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وما صاحبها من احتجاجات عنيفة أحيانا، وسلمية أحيانا أخرى، مما انعكس ذلك في تصورات ومواقف الكثير من أعلام هذه المرحلة.

حيث نجد هذه الأصوات ترتفع في العديد من دول المنطقة كما هو الحال مع: "اللورد بايرن في بريطانيا، الذي ولد في العام 1788م، وهو العام الذي ولد فيه آرثر شوبنهاور، و ألفرد دي موسيه في فرنسا، وهين في ألمانيا، وليوبارد في إيطاليا وبوشكين و ليرمانتوف في روسيا، كما ظهرت طائفة الموسيقيين من أمثال: شوبرت وشوبان، وحتى بيتهوفن، ولكن شوبنهاور الفيلسوف الألماني طغى على هؤلاء جميعا في روح التشاؤم

التي طبعت حياته وفلسفته" ، فمن هو شوبنهاور وما هي معالم فلسفته ؟ وما موقعه من قيم عصره؟ هذا ما نعمل على مناقشته وتحليله فيما يأتي:

1. خلفيته الفكرية وعلاقتها بأعماله:

إذا كانت مقولة حياة الشخص انعكاس لفلسفته تصدق على شخص واحد في هذا الوجود فهي تصدق بدون أدنى شك على آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer، فيلسوف التشاؤم في العصر الحديث بدون منازع. تذكر موسوعة الفلسفة لعبد الرحمن بدوي في جزئها الثاني ، أن مولد آرثر شوبنهاور كان يوم الجمعة 22 فيفري من سنة 1788م بمدينة دانتسج Dantzig الألمانية ، من أسرة ثرية، فقد كان والده صاحب مصرف، وبمجرد وفاته ، تولت أمه يوهانا هنرييتروزينر أمر تبيد الأموال التي تركها، فأست ناديا ثقافيا جمعت فيه كبار مثقفي وأدباء العصر بعدما تنقلت إلى مدينة هامبورغ التي كانت تقطنها إلى مدينة فيمار، فتكفلت بتمويله.

و قد تلقى دراسة الفلسفة على يدي الفيلسوف الألماني جوتلب ارنتس سولتز Schulze، الذي قام بتوجيهه لدراسة كانط وأفلاطون ، ونصحه بتجنب دراسة سبينوزا و أرسطو في هذه الفترة بالخصوص ، إضافة إلى دراسته اللغات القديمة كالغريانية واللاتينية ، وهذا ما نجده ينعكس بوضوح على أعماله التي جاءت متأثرة بالفلسفات التي كتبت بها ، هذا ما يدفعنا إلى القول و التأكيد أن مصادر ثقافته يمكن حصرها في ثلاثة وهي : الأفلاطونية ، الكانطية، الفكر الشرقي القديم ، بل أنه يعترف بنفسه بهذا التأثير عندما يقول : " إن فلسفة كانط هي الفلسفة الوحيدة التي يفترض سلفا وبطريقة مباشرة ... المعرفة التامة بها ، أما إذا كان القارئ . بالإضافة إلى ذلك . قد لبث في مدرسة أفلاطون الجليل فإنه يصبح معد بشكل أفضل . إلى حد كبير . كي يسمعي ويصبح حساسا لما أقول. ولو أنه حقا . بالإضافة إلى هذا . كان نائلا للفائدة التي تهبها الفيداس . والتي فتح المدخل إليها من خلال الأبايشاد، فإن هذا في نظري أعظم الميزات" ، وهنا تتضح لنا تأثيرات اللغات القديمة والمصادر التي كتبت بها، شرقية كانت أم يونانية.

أما عن أهم الأعمال العلمية التي أصدرها، فيمكننا الإشارة إليها على النحو التالي، بحسب تواريخ صدورها على النحو الآتي:

. في سنة 1813 تحصل شوبنهاور على شهادة الدكتوراه من جامعة فينا بأطروحة بعنوان: عن الجذر الرباعي لمبدأ العلة الكافية، ومن المفارقات التي قلما تحدث الموقف الذي قابلت به والدته النسخة التي أرسلت لها من هذا الكتاب من قبل ابنها حيث سخرت منه، فتألم شوبنهاور من ذلك وأجابها قائلاً: " سوف يقرأ هذا الكتاب يا أماه، حتى بعد أن تخلو حجرة الخزين من نسخة لأعمالك. "

في الوقت الذي نجد فيه غوته الشاعر الألماني الكبير، يزجر بعضا من الفتيات ، بعد أن تعمدن إهانة شوبنهاور قائلاً: " أيتها الصغيرات ، دعن الشاب وشأنه ، فإنه في الوقت المناسب سوف يعلو فوق رؤوسنا جميعا. "

في سنة 1819م بمدينة درسدن كتب في البداية: نظرية الإبصار والألوان، ثم ألحقه بكتابه الشهير العالم إرادة وتمثلا، عارضا فيه لجوانب فلسفته العديدة، ومعلنا فيه عن ميلاد فيلسوف كبير ، غير أنه لعدة أسباب لم يتمكن

هذا الكتاب من نيل مكانتها، لم يسمح لهذا الكتاب من أن يحمل صاحبه لكي يتبوأ الشهرة التي يستحقها أثناء صدوره. لعل أهمها وجود فلاسفة كبار أمثال هيجل و شلايرماخر، غير أن تغير الظروف عند طبعته الثانية عام 1844م جعلت الكتاب يحظى بالشهرة المطلوبة.

كما تجدر الإشارة هنا إلى أن شهرة شوبنهاور كفيلسوف للتشاؤم تعود إلى هذا الكتاب بالدرجة الأولى، حيث يبرز فيه معالم نظرية فلسفية جديدة.

أما سنة 1836 فيمكن اعتبارها السنة التي بدأت الشهرة تقترب من شوبنهاور، خصوصا بعد نشر كتابه الإرادة في الطبيعة، ليلحقه في السنة الموالية بمقالة بعنوان: حرية الإرادة ونظرية الضرورة الفلسفية، و فاز بها بجائزة الجمعية الملكية النرويجية، كما يذكر وفيق غريزي في كتابه شوبنهاور وفلسفة التشاؤم ، في حين يرجع الفيلسوف عبد الرحمن بدوي تاريخ صدور هذه المقالة إلى عام 1839م.

بينما نشر سنة 1841م، كتابه المشكلتان الرئيستان في علم الأخلاق، وهو كتاب يتكون من مقالتين هما: الأولى هي حرية الإرادة ونظرية الضرورة الفلسفية، والمقالة الثانية أسس الإلزام الأخلاقي. ليلحق به بعد عشر سنوات كتاب الحواشي والبواقي، حيث تركزت مكانته كفيلسوف كبير وصاحب فلسفة عرفت بفلسفة التشاؤم، ليتوفى بعد ما نال الكثير من الشهرة في يوم 21 جويلية 1860م، تاركا خلفه اسما كبيرا.

ورغم قلة أعمال الرجل، فقد كانت معبرة عن تيار فلسفي، تمدد في الفلسفة الغربية، حتى أنه كاد يصبغها بصبغته، رغم المنافسة الشرسة من فلاسفة عصره.

## 2. مظاهر فلسفة التشاؤم:

بعد أن قدمنا فكرة عن شوبنهاور وأهم أعماله، نود أن نتساءل عن الكيفية التي تجسدت بها الروح الفلسفية القائمة على التشاؤم ، مما يدفعنا إلى العودة لكتابه الشهير: العالم إرادة وتمثلا. وفن الادب، دون ان نهمل بعض الكتابات التي اهتمت بفلسفته.

### 2. 1 : أهمية الكتاب :

عن كتابه العالم إرادة وتمثلا يقول آرثر شوبنهاور في مقالة شهيرة له تحت عنوان: حكمة الحياة: "إن كتاب كهذا أشبه بمرآة إذا نظر إليه حمار، فلا نرجو أن يرى فيها ملاكا " ، فالكاتب أو الفيلسوف العبقرى في حقيقة الأمر لا يكتب لمن حوله ممن يعيش بينهم فحسب ، بل هو يكتب إلى الإنسانية ككل، ليس في عصره فحسب بل و إلى من يفهمه في العصور القادمة أيضا . مما جعله يعتبر أن ما يحتويه هذا الكتاب فيخلوا من الصبغة المحلية التي تستهوي المحيطين به وتنال قبولهم.

هذا الموقف نجده بوضوح في مقدمة كتاب العالم إرادة وتمثل، حيث نجده يقول: "إنني أخصص عملي المكتمل هذا، لا للمعاصرين لي، ولا لأهل بلدي، وإنما للبشرية، واثقا أنه لن يخلوا من قيمة بالنسبة للإنسانية ،حتى وإن كان إدراك تلك القيمة يأتي على مهل ، كما هو القدر المحتوم عموما لكل ما هو خير، فما كان هذا العمل أن يخصص سوى للبشرية ، وليس للحيل العابر الذي يكون مستغرقا في وهم اللحظة الراهنة، ذلك الوهم الذي كان عقلي يترصده، دون أن تتعلق به إرادتي غالبا، ودون تشويش، عبر حياة طويلة." "

وبهذا نجد الرجل لا يكتب لعصره فقط، أو لبني جنسه، وإنما يكتب لكل العصور التي تأتي بعده، ولكل البشر، ومن هما نجد، كما نجده يعترف بأن فلسفته تعبر عن الانسان، ولهذا فهي مرآة تعكس شكل من ينظر إليه، بغض النظر عن أصله وعصره.

2.2: التمثل:

يقسم شوبنهاور كتابه العالم إرادة وتمثلا إلى قسمين أو كتابين : الكتاب الأول العالم تمثلا ، أما الكتاب الثاني فهو الإرادة ، حيث نجده يفتتح كتاب العالم تمثلا بقوله: "العالم تمثلي، هذه حقيقة تصدق على كل موجود يحيا ويدرك على الرغم من أن الإنسان وحده هو الذي يستطيع أن يتمثلها من خلال وعيه المجرد التأملي، ولو أنه فعل ذلك حقا ، لأشرف عليه نور الحكمة الفلسفية ، عندئذ سيصبح من الواضح واليقين بالنسبة له ، أنه لا يعرف شمساً ولا أرضاً، وإنما يعرف فقط عينا ترى شمساً و يدا تحس أرضاً ، وأن العالم الذي يحيط بنا، إنما يكون قائماً هناك بوصفه تمثلاً فحسب، أي أنه يكون قائماً بالنسبة لشيء آخر ، أعني بالنسبة لذلك الذي يتمثله ، وهو الشخص نفسه. "

ويضيف أن ما توصل إليه لا يعد انفراداً يحسب له، وإنما مجرد تقرير لحقيقة معروفة سلفاً، فقد تنبه لها من قبل ديكرت في تأملاته الشكية، رغم أن باركلي هو أول من أعلنها صراحة في الفكر الغربي الحديث، ولهذا فإن تجاهل هذا الأمر يعد خللاً لا يمكن السكوت عنه ، وهو ما وقع فيه كانط عندما تجاهل هذا المبدأ، وبهذا تتضح لنا جزءاً من عقلية الرجل القائمة على الايمان نسبية ما يراه، وتقديره لما قدمه القدماء ، في عصر حاول تجاهل إنجازات الكثير منهم.

من جانب آخر نجد شوبنهاور، يؤكد على أن معرفة حقيقة التمثل لم تكن حكراً على الغربيين فحسب، وإنما هي حقيقة معروفة مسبقاً فقد تنبه لها منذ القدم فلاسفة الهند، هذا ما يعبر عنه بوضوح في قوله: " و يا له من زمن بعيد ذلك الذي أمكن فيه لحكام الهند أيضاً أن يتعرفوا على تلك الحقيقة الأساسية، حيث تتبدى تلك الحقيقة باعتبارها المبدأ الأساسي لفلسفة الفيديانتا التي تعزي إلى فياسا. " vyasa

هذا الاعتراف الذي يقدمه هنا فيما يتعلق بالفكر الشرقي بعامة والهندي خاصة، يكاد يكون فعلاً معزولاً في الفكر الغربي في عصره، الذي كان يسعى لتجاهل إسهامات الفكر الشرقي بعامة، محاولاً التركيز على منجزات الحضارة الغربية والفلسفة اليونانية.

3.2: الإرادة:

الإرادة هي عنوان الجزء الثاني من كتاب شوبنهاور ، ويخصه لمحاولة الاجابة عن أكثر من سؤال، بع أن يفتحه بقوله: "لقد درسنا في الكتاب الاول التمثل من حيث هو تمثل فحسب، ومن ثم درسناه من حيث صورته العامة فحسب، حقا إننا اكتسبنا معرفة تتعلق بالتمثل المجرد . أي التصور . من حيث مضمونه، حينما كان ذلك موضوع اهتمامنا، ولكن ذلك كان باعتبار أن التمثل المجرد ليس له من مضمون، أو معنى إلا من حيث صلته بتمثل الإدراك العياني الذي بدونه سيكون التمثل المجرد بلا قيمة وفارغا من المعنى. "

وتجدر الإشارة هنا أن الرجل عندما يستخدم مصطلح الإرادة فهو يستخدمه بمعنى خاص به، لا نكاد نجده عند غيره، فهي: " رغبة ملحة لا تهدأ، وقوة عمياء لا عاقلة أو اندفاع أعمى يحرك كل شيء وبه يتحقق وجوده

ويستمر في الحياة، ومن هنا كانت الإرادة عند شوبنهاور أساسا للاتجاه اللاعقلاني في فلسفته باعتبارها قوة لا عاقلة يكون العقل تابعا لها، وهي في نفس الوقت أساس للاتجاه التشاؤمي في فلسفته باعتبارها مصدرا للألم والمعاناة والشر"، وهذا ما يجعلنا نكتشف خصوصية أخرى تمي الرجل عن فلاسفة عصره، وتفردته عليهم، مما نتعرف على عبقرية الرجل واستقلالية تفكيره، عدم مواكبته لتيار عصره، وهو ما سمح للمتأثرين به فيما بعد بسلك مسلكه، والتخلص من التبعية.

## 4.2 الدين:

يمتاز الشعب الألماني عن بقية الشعوب الأوروبية الأخرى ببعده التقليدي للديانة المسيحية، والمتابع لتاريخ هذا الشعب يجد وضوح هذا العداء في تاريخه السياسي والديني، فقد أسقطت قبائل القوط الغربية روما المسيحية عام 410م، عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكونت إمبراطوريتها الخاصة، متخذة منها عاصمة لها، وثار مارتن لوثر على الكنيسة الكاثوليكية، وأسس المذهب البروتستانتي فقسم المسيحية الغربية للأبد.

هذه النزعة المعادية للمسيحية دفعت شوبنهاور للسخرية من هذه الديانة قائلا: "في اعتقادي أن الأمة الألمانية، وإن كانت من أغبي أمم التاريخ، فإنها مع ذلك، تمتاز على غيرها في أنها وصلت إلى درجة من التحضر استغنت فيها تماما عن الدين"، وعندما ثار عليه الذين سمعوا منه هذا الكلام وألقوا به في الشارع، لم يأبه لفعلهم وقام بنفض الغبار عنه قائلا: "إنني روح رقيق معذب في عصر من الحديد."

هذا التفكير في الحقيقة سلوكا عمليا، فهو لم يبق حبيسا في كتاباته، بل كان يجد تمثيلا وتمثالا له في أفعاله وسلوكياته، مما جعله يصطدم بمعارضيه في حياته العملية، جعلت خصومه يستغلون هذه الخاصة لدفع المتدينين لمهاجمته.

غير أن نظرة فاحصة في رؤية الرجل للدين بعامة، تجدنا نقف عن رؤية القاصرة في هذا الجانب، تتناقض مع تكوينه الفلسفي البعيد عن المركزية الغربية، وهو من هذا الجانب يفترض اطلاعه بل ومعرفته بالأديان الشرقية بعامة، من بودية وكونفوشيوسية وحتى الإسلام، الذي كان معروفا بشكل واضح في ألمانيا، نتيجة للعلاقة المميزة التي كانت تربطها بالدولة العثمانية ف ذلك العصر، ومع هذا فإن رؤيته التشاؤمية لم تخرج رؤية مثقفي عصره للمسيحية، وكأنه هنا لم يتحرر من القالب المعادي للمسيحية الغربية.

## 5.2 الزواج:

لعبت العلاقة السيئة التي ربطت بين شوبنهاور من جهة و أسرته ممثلة في والدته واخته من جهة ثانية دورا فاعلا في تشكيل مصدر تصويره عن المرأة والجنس و حتى الزواج، وهو ما جعله يعيش تناقضا بين الغريزة و العقل، ففي الوقت الذي وجدناه يكتب عن الحب و الشهوة، بل ويعيش تجارب من هذا النوع، نراه يتصل من الزواج و يتهرب من تحمل مسؤوليه الابن الذي رزق به، كما وجدناه ينتظر الشخوخة على احر من الجمر حتى تخلصه من أشواقه، التي كان قد بثها في أبيات من الشعر كتبها في مراحل متقدمة من عمره، نقتبس هنا بعض مما جاء فيها:

أيتها الشهوة ... أيتها الجحيم

أيها الاحساس ...أيها الحب

الذي لا يشبع ... و لا يقوى على قهره. "

مع ما في هذه الغريزة من لذة، فمن يتبعها لا تقوده إلا للبؤس والشقاء، فهي تدفع صاحبها للإنباب، الذي يقود الى الشقاء، ويفسر توفيق غريزي موقف شوبنهاور هنا بقوله: " أن هذا هو السبب في اقتران العملية الجنسية بالعار والشنار، ولم يجد مخرجا من شقاء الانسان غير الانتصار على الارادة، وضرورة تحطيمها وإفنائها...فشقاء الانسان يزداد بازدياد حدة ارادته، ويقل إذا خفت ارادته. "

ودون شك، فإن انعكاس الحياة الخاصة على فلسفته، جعلته يعيش التناقضات الإنسانية جميعها، فهو الحاقق على النساء الماكرات شبيهات أمه وأخته، ولكنه في الوقت نفسه يجد أن للجسد احتياجاته التي لا يمكن الاستغناء عنها، فهو لا يريد أن يعيش مع المرأة أو على الأقل أن يخلص لامرأة، ولكنه لا يريد أن يعيش بعيدا عن المرأة.

5.2 الآخر بين العبقرية والعبودية:

ظل شوبنهاور طيلة حياته في جدل وصراع مع الآخر، غير أن السؤال الذي يفرض نفسه هنا، يتعلق اساسا بالمقصود بالآخر عنده، وبعد عودتنا لما كتبه هذا الأخير، وجدنا الآخر عنده نوعان: الأول هو غير شوبنهاور، والثاني متمثل في غالبية الناس العاديين في مقابل العباقرة الذين ينتمي اليهم.

هذا التقسيم يدفنا إلى مناقشة رؤية الرجل، معتمدين في هذه المناقشة على مصدرين أساسيين: المصدر الأول يتمثل في كتاباته المتعددة، وخاصة في كتابه الرئيسي ونقصد به العالم إرادة و تمثّل، و كتابه الآخر المعروف بفن الادب، الذي هو عبارة عن مجموعة من المقالات المتنوعة قام بجمعها بيلى سندر، أما المصدر الثاني فنقصد به بعض الكتابات التي قامت بالتأريخ لحياته وفلسفته. نذكر منها كتابين هامين هما: شوبنهاور وفلسفة التشاؤم لوفيق عريز، وكتاب ميتافيزيقا الفن عند شوبنهاور لصاحبه سعيد محمد توفيق.

نعود الآن للحديث عن آخر شوبنهاور، المتمثل في ما عداه، حيث نجده يعتبر نفسه عبقرى، لم يلق التقدير من أقوام لم يفهموه، وفي هذا يذكر بيلى سندر أن شوبنهاور على الرغم من: " تلهفه الواضح إلى اعتراف الناس به وتقديرهم لنبوغته، كاره لهم متباعد عن صحبتهم، يعلن في كتبه، أنه منذ بدا يزاول الفكر، على خلاف معهم، وأنه كلما زادت معرفته بهم، كلما تضائل وده لهم، وأن في اعتقاده أن ذوي النبوغ والتفوق لا يقدرّون على مصادقة من هم دونهم فكرا و رجاحة عقل، فكان منذ عهد دراسته عزوفا عن الاختلاط حتى بأترابه الذين كان يخيم عليهم في حضوره صمت مطبق، وينقطع ضجيجهم، وهم ينظرون في رهبة محياه المكفهر العابس. "

و في هذا السياق يضيف بنتلي سندر، قائلا في حديثه أن شوبنهاور يحتقر: " القدرات العقلية للناس جميعا، وطريقة تصرفهم فكان لا يتورع، و هو الرجل المتوقر العبوس، عن محاكاة من يلقاهم في طريقه من الناس بطريقة مضحكة على سبيل السخرية، من شكلهم وحركاتهم وطريقتهم في المشيء. "

وحتى نكون على بينة من أمرنا فإن هذا الموقف المعادي للآخر، ليس موقفا من فئة معينة من الناس وإنما هو موقف عام يشمل الجميع، هذا ما نجده مع والدته التي اعتبر انها خانت ذكرى والده، بعدما أن جمعت حولها ثلة من محبي الأدب، كما نجده ينتقد هيجل انتقادا لاذعا ولا يعترف بقدراته، خاصة بعد أن

عمل معه في جامعة برلين، وعمل على تحديه ، بعد أن وجد أن شهرة هيجل من الصعب الوقوف امامها، ومع هذا حاول الوقوف في وجهه ، وهذا ما يذكره بتلي سندرست عندما يروي هذه الحادثة في قوله: " فقد كان هيجل ، في ذلك الوقت كما هو حتى اليوم ، رجل الساعة في مجال الفكر الفلسفيا لا أن فيلسوفنا المقدم لم يهتم كثيرا ، بل رأى أن يعبر عن مدى استهانته بمكانة هيجل واحتقاره بأن يعلن عن محاضرة له في التاريخ نفسه والساعة المحددين لمحاضرة من محاضرات ذلك الفيلسوف، إلا الآن الذي حدث هو أن اكتظت القاعة التي كان يحاضر فيها هيجل على سعتها، ولم يحضر لسماع شوبنهاور إلا قلة من الناس، لعلهم كانوا ممن لم يسعفهم الحظ بالعثور على مقعد بالمحاضرة الاخرى، وبدا فيلسوفنا اللبق محاضرتة بقوله: ما كاد كانط يختفي في غيابة القدر، حتى قامت قائمة السفسطائيين الذين أنهكوا الفكر في زمانهم بما حدثوه من ضجيج أجوف وما خرجوا به على الناس من مردول القول... إن أمثال هيجل يجب أن يمنعوا معنا من مزاوله الفلسفة، كما حرم العشارون من مزاوله تجارتهم داخل المعبد وطردوا منه، وأن أصدق وصف للغو الذي يتشوق به هيجل هو قول شكسبير: تلك الاقوال التي تلوها افواه المجانين ولا تعيها عقولهم. "

لم يتصور فيلسوفنا مطلقا أن يجد نفسه أمام مقاعد خالية بعد أن خرجت القلة القليلة التي أشرنا إلى حضورها من قبل، فما كان منه الا أن يقف موجهها نظره نحوى هذه المقاعد، معزيا نفسه قائلا: " وهل كان معاصرو سقراط قادرين على فهمه أو معرفة قدره ". وهكذا نجده يتهم الغير غيره، مستكرا ما وصلوا اليه من شهرة قائلا: " ها أنذا اسمع أبواق الشهرة ترفع التوافه من شأن التوافه وتذيع صوت البلهاء، بينما أقف أنا منزويا في الظلام لا يسمعي أحد ، أنا الذي رفعت قناع الحقيقة إلى أبعد مما بلغه إنسان. "

يبرر الرجل عزوف الآخرين عنه في هذه المرحلة من حياته بقوله: " إن الفتور الذي صادفته ربما جعلني أشك في نفسي وفي كل ما قمت به من انجازات... وهذا الإهمال يثبت أحد الأمرين: فإما أنني غير جدير بعصري ، أو أن عصري غير جدير بي، وفي كلتا الحالتين فإن المرء لا يسعه إلا أن يقول : الراحة هي الصمت، لقد رفعت حجاب الحقيقة أعلى مما رفعه أي إنسان من قبلي ... ليست هناك فلسفة في الفترة الواقعة بين كانط و بيني، فليس هناك سوى دجل بالجامعة، ومن يقرأ كتابات هؤلاء المؤلفين التافهين، فإنه يضع من وقته بقدر ما يقضى من وقت في قراءتها، وأنه ليبدو أن أي دخول في المجالات الفلسفية الحالية، إنما يشبه المشاركة لغوغاء يتشاجرون في الشارع، عن الحياة تمضي بسرعة والفهم يأتي على مهل، ولهذا فإنني لن أعيش لأرى شهرتي. "

ما يمكننا قوله هنا أن الآخر الجيد عند شوبنهاور لا وجود له بين الاحياء، إلا مرة واحدة مع غوته الذي نبه لنبوغه وعمل على تشجيعه ، أما من الاموات فهناك الكثير منهم ، حيث نجده يقدرهم ويستشهد بهم في كتاباته وأقواله، كما هو الحال مع : سقراط، أفلاطون، كانط و شكسبير .

يمكننا إرجاع موقفه المعادي من الآخرين إلى غياب روح المنافسة لديه ، حيث نجده يعتبر أن وجود مثل هؤلاء من شأنه حجب الشهرة عنه، وبالتالي لا بد أن يموت كل العباقرة حتى يعترف هو بعبقرتهم، فاسحين له المجال ليتمكن من تحقيق الشهرة التي يصبو إليها.

أما فيما يتعلق بالأخر الممثل في العامة، فنجد رؤية شوبنهاور تختلف نوعا ما، وهذا ما يتضح لنا في مقالته الشهيرة عن العبقرية، حيث نجده يفرق بين الملايين التي لا تستخدم عقولها إلا في حاجاتها الطبيعية، وبين القلة قليلة من الناس التي تستخدم عقولها في غايات أسمى من الغايات الطبيعية، هذا ما يعبر عنه صراحة بقوله: "ليس هناك من ضروب التباين التي تخلقها المكانة، و ينشئها المنصب، و يورثها الأصل، ما يعدل عظم المودة التي تفصل بين الملايين ممن لا يستخدمون رءوسهم إلا في خدمة بطونهم، أو بعبارة أخرى ينظرون على العقل بوصفه أداة من أدوات الإرادة، ومن تلك القلة الشحيحة النادرة ممن يجدون في أنفسهم الشجاعة لكي يقولوا " لا ! إن العقل أعظم من أن يسخر في غرض كهذا، فأرسي لن ينشط إلا في خدمة ذاته، جاهدا في فهم هذا المرأى الباهر بالغ التنوع للعالم من حولي، كما يعبر عن ذلك الفهم في شكل من أشكال الفن و الأدب يتفق وميولي و استعداداتي الفردية"، أولئك هم النبلاء الاصلاء والصفوة المختارة وليس من عداهم إلا عبيد الأرض ممن يشترتون ويباعون معها."

ليصل إلى وجود تمايز بين الطرفين ليس في الجوانب العقلية فحسب، بل وفي الجوانب البيولوجية أيضا، فالعامة لا تنقصهم الشجاعة فحسب، بقدر ما تنقصهم الرغبة ومعرفة الحق التي تجعلهم يعملون على تحرير عقولهم، وبدلا من ذلك صاروا عبيدا للإرادة.

خلافا لمن توفرت فيهم ميزات خاصة رغم بساطتها أحيانا، إلا أنها تجعل من مواهبهم أصيلة وحقيقية، تكون حاجزا حقيقيا تفصل بينهم وبين غيرهم، وهذا سر تفوق أمم على أخرى، نتيجة لما ينتجونه من أعمال فنية وموسيقية وفلسفية، وبهذا يصل إلى أن أحكام الأشخاص المميزون موضوعية في أحيان أن أحكام الآخرين ذاتية.

ذلك أن: "الاهتمام الموضوعي فمقصود على الرؤوس المفكرة بالسليقة، تلك التي يكون لها الفكر بمثابة التنفس، وهي رءوس نادرة عزيزة المنال، وهذا هو السبب في أن أهل العلم لا يتبدى لديهم إلا أقل القليل من ذلك الضرب و الاهتمام.

فهل كانت أحكام شوبنهاور موضوعية أم ذاتية؟ تبعا لطبيعة الإجابة عن هذا السؤال يمكننا أن نصنف شوبنهاور إذا كان يمكن وضعه ضمن العباقرة أم العبيد؟ ومن خلال تتبعنا لما كتبه الرجل، ومن المواقف التي اتخذها، نجد أن معظم أحكامه تتصف بالذاتية، وتبتعد كثيرا عن الموضوعية، كما أن فلسفته التي يغلب عليها التشاؤم هي تعبير ذاتي عن فشل في التكيف، ومنه فهي أبعد من أن تكون تعبيراً موضوعياً عن ما توصل إليه من قناعات فلسفية، هذا التفسير من حيث المبدأ يدين شوبنهاور ويضعه ضمن فريق العبيد الذي استصغاره، غير أن نظرة شاملة في فلسفة الرجل تجعلنا نقتنع أن فيها جوانب تعبر عن عبقرية كاملة، فهو صاحب مذهب فلسفي متكامل، وصاحب رؤية فلسفية جديرة بالوقوف عندها، بل أن كتاباته صارت مصدر ومرجع لكثير من الفلاسفة الذين اتخذوا منها معلما ومنطلقا.

6. قيمة الانسان:

يثير شوبنهاور في كتاباته المختلفة فكرة قيمة الإنسان ويحاول جاهدا أن يعرض لتصور يبرز منه خلاله هذه القيمة، غير أن المعايير التي يعرضها في هذا الجانب، توقعه في تصورات متناقضة، فتارة نجده



يعترف بأن هناك قيم حقيقية و أخرى زائفة ، وأن القيم الحقّة يضعها الانسان بنفسه عندما يحدد حالته الخاصة ، وتبعاً لهذا النوع من التفكير فإننا نستطيع التأكيد على وجود صنفين من الناس :

- صنف من الفريق الاول يحدد وفقاً لرؤية مثليه لحالتهم الخاصة ، ويشمل هذه الفئة القليلة من المفكرين: "الأصلاء المتحررون من كل قيد، فهم الذين يفكرون حقاً، ويستقلون عن كل سلطان للغير وهم الفلاسفة حقاً، وهم وحدهم الجادون فيما هم فاعلون ، فمتعة الوجود وسعادته القصوى بالنسبة إليهم تتمثلان في الفكر. "

يتميز هذا الفريق من الناس بكونه يفكر لنفسه، ولا يترك غيره يفكر بدلا عنه، وبهذا فإن ما يصدر عن ذاته من أفكار تكون معبرة عن نوازه الفكرية الأصيلة التي تتحدد أثناء عملية التأمل هذه : " فالعالم المرئي المائل في البيئة المحيطة بالإنسان لا يستطيع لا يطبع ذهنه كما تفعل القراءة ن بفكرة واحدة محددة ، بل يهيئ الموضوع الذي يتناوله الفكر والظرف الملائم لمزاولة ذلك الفكر بما يؤدي بالإنسان إلى أن يتفكر بما هو متسق مع طبيعته ومزاجه في اللحظة الراهنة. "

أما الصنف الثاني فيحدد وفقاً لرؤية أصحابه للآخرين، أما عن الفئة التي يشملها فتتمثل في ما يطلق عليهم شوبنهاور لفظ السفطائيين، وتجدر الإشارة هنا أن الرجل لا يقصد بهم انصار النزعة السفطائية التقليدية التي ظهرت في عصر سقراط فحسب، وإنما هم كل فئة من المدعيين ممن: " يحاولون أن يبدوا على غير حقيقتهم و يتلمسون سعادتهم فيما يأملون أن يحصلوا عليه من العالم ، وهم لا يكونون جادين في أي شيء خلاف ذلك. "

لعله من نافلة القول أن نوضح هنا، أن شوبنهاور فيلسوف جسدا التشاؤم في أفكاره وأفعاله، مما جعل من هذه الأفكار تعبر عن تعبيراً دقيقاً، عما كان يؤمن، وهي نزعة فلسفية إيجابية رغم جوهرها السلبي في حياة الإنسان، ذلك أن الرجل لم يكن يقول ما لا يفعل، أو يبشر بما لا يعتقد، فهو إيجابياً في توافقه، سلبياً في تفكيره.

#### المصادر والمراجع

- . وفاق غريزي : شوبنهاور وفلسفة التشاؤم: دار الفارابي، بيروت لبنان ،ص 15.
- . عبد الرحمن بدوي : موسوعة الفلسفة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، ط1 سنة 1984م ،ص 31.
- سعيد محمد توفيق : ميتافيزيقا الفن عند شوبنهاور، دار التنوير للطباعة و النشر، بيروت، ط1، سنة 1983، ص 33.
- . آرثر شوبنهاور : العالم إرادة وتمثلاً ، ترجمة سعيد توفيق، المجلد الأول، المجلس الأعلى للثقافة، مصر ، ص35.
- . محمد سعيد توفيق : فلسفة الفن في ميتافيزيقا شوبنهاور :ص27،26.
- . آرثر شوبنهاور: فن الادب، جمع وترتيب ببلي سندر، ترجمة شفيق مفار ، المركز القومي للترجمة ، 2013م ، ص28.